العقاد والنظام السياسي للدولة الإسلامية في صدر الإسلام

✍ د. خيرية محمد حسين الجربي
جامعة الزاوية - كلية الآداب

مقدمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد ...،

فإن المفكر "عباس محمود العقاد "– هو أديب، شاعر، صحفي، عضو سابق في مجلس النواب، كان يكتب في مجلة "فصول " كما كان يقوم لها بالترجمة، اشتهر العقاد بمعاركه الأدبية، والفكرية مع أحمد شوقي، وطه حسين، ومصطفى الرافعى، وعائشة عبد الله "بنت الشاطىء".

وقد اقتصرت دراسته على الابتدائية فقط، لكنه اعتمد على ذكائه وصبره على التعلم حتى أصبح ذا ثقافة موسوعية لا تُضاهَى، وأتقن عدة لغات منها الإنجليزية، ومن شدة محبته للعلم أنفق معظم أمواله في شراء الكتب (1).

اتسمت آراء العقاد بالموضوعية والدقة والعاطفة الصادقة.

لذا استحق العقاد أن يصبح علماً من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وجدير بمصنفاته العلمية البحث والدراسة.

دوافع الاختيار

في خضم هذه الصراعات التي يشهدها عصرنا الحديث، وخاصة بلادنا العربية، وظهور التطرف الديني، والتستر بالدين لأجل الوصول إلى مآرب دنيوية كالمال أو السلطة أو الجاه.

وسعى الإنسان ونضاله من أجل الحرية وتحقيق الحياة الكريمة، التي يتحقق فيها العدل والأمان والاستقرار، مما جعل الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان من أجل الوصول إلى هذه الغايات صراعاً محتداً ينحرف بالفرد عن سبيل الصواب، ومع تنوع الأنظمة السياسية السائدة في العالم تنوع هذا الصراع ولكلٍ وسائله وأسلحته ووسائل الدعاية له، فهو قد يكون صراعاً بين الأحزاب أو بين أعضاء البرلمان، والسؤال . ما هو الصواب، ما هو الأصوب، وأسوتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، كيف كان النظام السياسي في تلك الحقبة المزدهرة من عصر الإسلام، ولأني أحب مطالعة كتب العقاد، استوقفتني آراؤه وتحليلاته بهذا الشأن فرأيت أن أجمعها وأصنفها تحت هذا العنوان عسانى أن أجد فيها بعض ضالتي .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مصنفات العقاد كالمجموعة الكاملة، وعبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وكتاب الإسلام وأوضاعنا السياسية لعبد القادر عودة، وغيرها من المصادر الأخرى، وكان الرأي أن يكون هذا البحث في مقدمة وأربع فقرات هي التالية :

أولاً: مفهوم الدولة الإسلامية ونشأتها عند العقاد.

عُرفت الدولة بعدة تعريفات منها " أنها مجموعة من الأفراد مستقرة على إقليم معين ولها من التنظيم ما يجعل للجماعة في مواجهة الأفراد سلطة عليا آمرة وقاهرة".(2)

كما عُرفت بأنها " جماعة كبيرة من الناس تقطن على وجه الاستقرار أرضاً معينة من الكرة الأرضية وتخضع لحكومة منظمة تتولى المحافظة على كيان تلك الجماعة وتدير شؤونها ومصالحها العامة " . (3)

كما قيل في تعريف الدولة بأنها : " عبارة عن ذلك الشخص المعنوى الذي يمثل قانوناً أمة تقطن أرضاً معينة والذي بيده السلطة العامة ". (4)

وتلتقى التعريفات السابقة في أن الدولة تمثل مجموعة كبيرة من الأفراد وهي الشعب تقطن في إقليم واحد تستقر فيه ولديها حكومة ذات سيادة .

" وسيادة الدولة تعنى قدرتها على التصرف بحرية واستقلال في شؤونها الداخلية والخارجية ". (5)

تناول العقاد مفهوم الدولة ونشأتها، وبين دور أبي بكر الصديق في إقامتها، ودور عمر بن الخطاب، وفرّق بين المرحلتين.

فقد ذكر في كتابة " عبقرية الصديق " بأن أبا بكر هو المؤسس للدولة الإسلامية، هذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه، شارك في بناء الدولة بسلطان العقيدة، قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة، فكانت الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم من داره، وبذل المال في البعوث وغير البعوث، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار، ومحاربته قريش بعلمه واطلاعه على الأنساب، كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه.

بل كل ما عمل منذ أن أسلم إلى أن تولى الخلافة ؛ فهو في جملته ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها.(6)

ويضيف العقاد مشيداً بدور الصديق – رضي الله عنه – بأنه في أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز حيث أنفذ بعثة أسامة، وقمع الردة، ووطئ حدود فارس والروم ولها ما لها من الهيبة والقوة، ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم. (7)

ويتساءل العقاد: هل استطاع الصديق إقامة نظام للدولة الإسلامية ؟

ويجيب قائلا: "لم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية في عهد الصديق، أو لعلّ المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه في عهده لكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها " ويوضح رأيه هذا بأنه لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذي كانت تجرى عليه في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى ما كانت عليه في أيام النبوة، ولأن الأرجاء الأجنبية التي زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصديق في دور الغزو والفتح، ولم تبلغ بعد إلى دور التوطيد والتنظيم، فكل ما جرى عليه النظام في أيام النبوة كان صالحاً للإتباع في أيام الخلافة الأولى.(8)

مؤسس الدولة الإسلامية في رأي العقاد

يقول العقاد: " إننا نسمّى عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة، لأننا أولاً لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه. (9)

نقل ابن هشام قول عبد الله بن مسعود " بأن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنّا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ". (10)

فالعقاد يرى بأن عمر هو مؤسس الدولة الإسلامية قبل توليه الخلافة بزمن يبدأ يوم إسلامه وعزة الإسلام والمسلمين به، ويتأكد ذلك يوم مبايعته لأبى بكر بالخلافة وإشارته عليه بجمع القرآن.

يقول العقاد: "وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم، ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك حتى استدعى زيد بن ثابت (11) كاتب الوحى فأمره أن يتبع آي القرآن ليجمعها من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب ". (12)

ومما أخرجه البخارى أن " زيداً بن ثابت رضى الله عنه قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتاني، فقال: القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال عمر: هذا

والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ". (13)

كما أشاد العقاد بدور عمر بن الخطاب في بناء دولة الإسلام معدداً أهم أعماله مبتدئاً حديثه بأنه يروعه ويدهشه من رجل البادية جمعه للقرآن ووضع في عهده كتاب للنحو والصرف وأنشأ حكومة ووضع الدواوين، وهذا سبق لم يسبقه فيه أحد، كما أنه نظم القضاء والإدارة، واتخذ بيت المال، ووصل بين أجزاء الدولة بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وكان نظام الشورى في عهده على أحسن ما يقام، وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمحاسبة واستطلاع الرأي من أقصى الدولة إلى أقصاها ؛ يفد الولاة يعرضون حسابهم وأخبار ولاياتهم، ويفد أصحاب المظالم والشكايات لبسط قضاياهم، ويفد الرقباء وهم أعينه على ولاته وعماله . (14)

ومن خلال عرض العقاد لسياسة أبى بكر وعمر يمكن أن نستخلص أن مفهوم الدولة بمعناه المعروف لم يتضح إلا في عهد عمر بن الخطاب .

فما يراه العقاد بأن مفهوم الدولة بمعناه المعروف لم يتضح إلا في عهد عمر بن الخطاب هو قول أقرب للصواب فقد وضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن بعده الصديق – رضي الله عنه – نواة الدولة الإسلامية بعد الهجرة، فالعهد المدني اكتمل فيه نضج المسلمين إيمانياً وترسخ الإسلام في قلوبهم وتعلموا الحلال من الحرام فقد كان هم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، كان هو معلمهم وإمامهم وقائدهم الحربي، همه الأكبر صلوات الله وسلامه عليه هو تعميق الإيمان في نفوسهم وترسيخه في قلوبهم، وفض الخلافات التي قد تطرأ بين الفينة والأخرى بينهم، والإجابة عن تساؤلاتهم، كما أن العهد المدني كان مليئاً بصراعه عليه الصلاة والسلام مع اليهود ومكائدهم وتعنتهم وغدرهم فغزاهم وأجلاهم عن المدينة، " وانضاف إليهم (اليهود) رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى (أي بقى) على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين أبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث".(15)

أضف إلى ذلك استقباله – صلى الله عليه وسلم – لوفود القبائل العربية التي أقبلت عليه من كل حدب وصوب تشهر إسلامها، فالعهد المدني يمكن أن نصفه

بالازدحام أو بحالات الطوارى المتكررة وبسرعة فقد يرجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون من غزوة ليقدموا على أخرى بعد فترة وجيزة، " ولما اطمأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة وفرضت الزكاة، والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهر هم " . (16)

"لقد أدت بيعة العقبة الثانية وما تلاها من هجرة الصحابة من مكة إلى المدينة إلى ظهور المجتمع السياسي الإسلامي فقد توافر بعد البيعة والهجرة عنصران رئيسيان في نشأة أي مجتمع : عنصر التقيد الإقليمي ... والعنصر الثاني هو ما يمكن أن يسمى بحالة الضمير الاجتماعية التي تعنى الالتقاء القلبي والفكري على غاية مشتركة ... وبقى العنصر الثالث وهو عنصر السلطة السياسية ذلك العنصر الذي توافر للمجتمع الإسلامي في المدينة بهجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إليها وتوليه زمام السلطة السياسية". (17)

وخلاصة القول هنا أن رأي العقاد بأن الدولة الإسلامية تأسست على يدي عمر ابن الخطاب بداية من إسلامه هو قول فيه كثير من المبالغة، فدولة الإسلام وضع نواتها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد بيعة العقبة الثانية والهجرة إلى المدينة، لقد أرسى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قواعد هذه الدولة ومن بعده الخليفة الصديق ونتيجة لما ذكر عن العهد المدني وما تميز به يمكن تسمية هذه الفترة بالدولة الحديثة الولادة أو الناشئة، نعم هي دولة ذات سيادة إمامها وراعيها وقائدها هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلا أنها لم تكتمل وتتبلور وتنضج عناصرها أو محاورها التنظيمية الإدارية كما هو في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فهي قد اشبهت النبتة في طور نموها الأول، ثم تعهدها عمر بن الخطاب وقام بإصلاح التربة وإحسان طرق الري لتكون الثمار كأحسن ما تكون عند نضجها.

ثانياً: الأداة الحكومية أو الإدارية.

يتحدث العقاد عما أسماه بالأداة الحكومية أو الإدارية قائلا : " يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية أو الإدارية لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير

النظام الذي اتخذه النبي – صلى الله عليه وسلم – واكتفى به في إدارة الشؤون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي وغياب المرجع الأول الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور . (18)

ويدلل العقاد على رأيه هذا بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد تولىّ بيت المال في عهده رجل سماه " أمين الأمة " وهو أبو عبيدة بن الجراح (19)، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره به، وهو عمر بن الخطاب، وتولى الكتابة كاتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو زيد بن ثابت (20)، وكانت ولاية هؤلاء أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف والعمل المرسوم .

ويضيف العقاد موضحاً بأن قادة الجند كانوا يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة في بلد أجنبي تركها على النحو الذي كان مألوفاً في ذلك البلد، إلا ما كان فيه خلاف للدين . (21)

ويبين العقاد متحدثاً عما أسماه **بسياسة الصديق الدولية** بأن الصديق سلك سنّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من مشاورة ذوى الرأي والثقة في كل ما حلّ أو دعا إلى السؤال ولكنه كان يستقل بالرأي حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره كاستقلاله بالرأي في اختيار الخليفة من بعده، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب . (22)

ويقصد العقاد بأن الصديق قد سلك مسلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين استخلفه من بعده .

وقد ذكر الطبرى في تاريخه روايات متعددة عن استخلاف أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – لكنها في مضمونها تؤكد استخلافه له، منها ما نقله عن أبى جعفر والواقدي أن : " أبا بكر دعا عثمان خالياً فقال : فقال اكتب [وهذا في مرض وفاته] : بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين، أما بعد . قال : ثم أغمي عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان : أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آ لكم خيراً منه، ثم أفاق أبو بكر، فقال : إقرأ على، فقرأ عليه، فكبر أبو بكر، وقال : أراك خفت أن يختلف

الناس إن افتلتت نفسي في غشيتى ! قال : نعم، قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرّها أبو بكر – رضي الله عنه – من هذا الموضع . (23)

ثالثاً: نظام الحكم في الدولة الإسلامية

نقل العقاد ما كتبه مؤلف كتاب (الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط في العشرين) سنة 1929 م والذي طبعته هيئة نوستراند لدراسة العلوم السياسية بمطابعها في الولايات المتحدة وانجلترا، وموضوع هذا الكتاب – كما يذكر العقاد – هو البحث في تطور الحكم في البلاد الإسلامية، ويرى العقاد بأن طريقة المؤلف في كتابه لا تختلف عن غيره من المستشرقين فهم في الغالب لا يزنون الموضوع الواحد بميزان واحد فيما يتعلق بالإسلام وبالأمم الإسلامية وفيما يتعلق بغير الإسلام وغير المسلمين، فنظرتهم أبداً هي نظرة جانبية إلى المسائل الإسلامية ولا يعممون النظر على قاعدة واحدة وإلى نظائرها في أوروبا وأمريكا، وعندهم دائماً أن مسائل الإسلام موسومة بالغرابة والمخالفة لما عداها من المسائل العالمية فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداءً من النظرة الأولى، ولا يحسبون أن التعليل العلمي يتسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل . (24)

وينقل العقاد ما كتبه مؤلف الكتاب فيما يتعلق بنظام الحكم الإسلامي قوله: " إذا دققنا النظر في القول لم نجد في الإسلام نظرية مستقلة للحكومة، إذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل في نطاق الديانة، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات، والمسلم الذي يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الإسلامية بحق الانتماء إلى الديانة فقط لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر، ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الإسلامية أو الدولة الإسلامية بسمات أربع وهي :

1- أن الله رأسها والقرآن دستورها.
2- القرآن هو الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجري لها شرعاً غيره .
3- وظيفة دستور الحكومة وشكلها وأحكامها أبدية لا يمكن تغييرها بتغير المكان والزمان.

4- إن الغاية من الحكومة هي إقامة الدين وتنفيذ كلمات الله . (25)

ويردّ العقاد معترضاً عما ذُكر، متسائلاً : هل للدستور أو للقانون على الأساس الصحيح في كل صورة من صوره قاعدة تخالف هذه القاعدة في جملتها ؟ وهل يصل المؤلف ببحثه يومياً إلى دستور " وضعي " قويم بدأ به العمل في أمته بجميع تفصيلاته وتعديلاته دفعة واحدة ؟ وهل في دساتير العالم دستوراً لم يقم على قواعد ثابتة لا تتغير مهما تتغير بعد وضعها نصوص المواد والقوانين المتفرعة عليها ؟

ويضرب لنا العقاد مثلاً بالأمة البريطانية باعتبارها من أقدم الأمم الديمقراطية عملاً بالحكم النيابي، ودستورها في أساسه قواعد لا تقبل التغيير وإن تغيرت المواد التي لم تكتب بتفصيلاتها حتى اليوم، ومن هذه القواعد حرية الفرد وحرية الاعتقاد، وحرمة المنزل، ومبدأ النيابة وتقرير الضريبة ومبدأ المسؤولية الوزارية، والسيادة البرلمانية في وضع القوانين، ومبدأ سريان القوانين في جميع الأوقات واشتراط الموافقة على وقفها أو تعليقها على حسب الطوارئ والضرورات فهل

يكون الدستور الصالح كذلك ولا غرابة ثم تكون الغرابة كل الغرابة في دستور الإسلام . (26)

رابعاً: آليات الحكم الإسلامي عند العقاد .

الديمقراطية ونظام الشورى في الإسلام .

يرى العقاد أن نظام الحكم في الدولة الإسلامية يمكن أن نسميه بالنظام الديمقراطي لأن أساسه الشورى الذي أمر الله سبحانه بها نبيه في القرآن ونقل العقاد ما ذكره صاحب كتاب " الفخرى "بأن آداب المشاورة فرضت على النبي قبل غيره من المسلمين وبالتالي فإن الملك يجب ألا يستبد برأيه وأن يشاور في الملمات خواص الناس وعقلائهم، ولا ينبغي أن تمنعه عزة الملك من إيناس المستشار به وبسطه واستمالة قلبه، حتى يمحضه النصيحة، فإن أحداً لا ينصح بالقسر ولا يعطي نصيحة إلا بالرغبة، واختلف المتكلمون في كون الله أمر رسوله بالاستشارة مع أنه أيده ووفقه، وفي ذلك أربعة وجوه :

أحدها أنه عليه الصلاة والسلام أُمر بمشاورة الصحابة استمالة لقلوبهم، وتطييباً لنفوسهم، والثاني أنه أُمر بمشاورتهم في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه، والثالث أنه أُمر بمشاورتهم لما فيها من النفع والمصلحة، والرابع أنه أُمر بذلك ليقتدي به الناس فالخطأ مع المشورة أصلح من الصواب مع الانفراد والاستبداد.(27)

الديمقراطية الإسلامية عند العقاد

يقدم لنا العقاد صورة مجملة لما أسماه الديمقراطية في الإسلام، ويحددها بأنها ديمقراطية (خاصة) بين النظرية والعملية، والتي تطورت بها حوادث التاريخ من أيام البداوة إلى أيامنا هذه في حضارتنا الحديثة.

ويعلل العقاد كونها خاصة بقوله: " وهي خاصة لأنها تضيق عن غيرها كما يضيق كل تخصيص بعد تعميم ولأنها تخالف الديمقراطيات الأخرى في نشأتها وغايتها، وتتسع بأصول الحكم حتى تخرج بها من الصبغة المحلية إلى الصبغة الإنسانية بل الكونية .

فليس في عقيدة المسلم نظام بين السماوات والأرضين لا يستقر على هذا الأساس إله رحمن رحيم، يجري الكون على سنن، ويحاسب الخلق ببلاغ ونذير ولا يظلم أحداً، وما هو بظلام للعبيد". (28)

ويصف الرسول القائم بتطبيق هذه الديمقراطية في قوله :

"ونبي ليس بالمسيطر ولا بالمتجبر، ولكنه بشير ونذير، وليس له من الأمر شيء والامر بينه وبين أمته على المشاورة ومكارم الأخلاق " . (29)

وعن إمام المسلمين يقول: " وإمام يطيع قبل أن يطاع ويتولى الحكم من أيدي المحكومين، وأمة هي المرجع في كل سلطة وكل سياسة وكما تكونوا يُولىَّ عليكم فهي المسؤولة عمن يسمونهم في عصرنا الحاضر بالمسؤولين . ليس لأحد حق العسف والطغيان ولا حق الفتنة والعصيان ولهم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".(30)

فمن خلال ما ذكر يتبن أن العقاد وضع أسساً لما سماه بالديمقراطية في الإسلام وهذه الأسس هي:

- أنها نظام مستوحى من شرع الله ورسوله.
- وهي عامة للإنسانية جمعاء .
- وأهم دعائمها إمام المسلمين القائم بشرع الله وهذا الإمام مأمور بالشورى كما أُمر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إمام المسلمين الأول .

ومعلوم أن " الراجح بين الفقهاء هو أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة في الأمور العامة بحيث إذا لم يفعل الحاكم بتركه للمشاورة وجب على أمته المطالبة بها أو تقوم بإبداء الرأي حتى وإن لم يُطلب منها " . (31)

ومع أن القول بالوجوب هو الراجح إلا أنه ذهب بعض الفقهاء إلى جعله مندوباً لا واجباً القصد منه " تطييب قلوب الصحابة " مع انه ... ليس بالسبب الوحيد . وقد وعى الفقهاء المسلمون هذه المعاني فقرروا أن الشورى من عزائم الأمور التي لابد من نفاذها ورتبوا على ذلك أن الشورى من عزائم الأمور التي لابد من نفاذها ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف " . (32)

من هنا تبين أن الحكومة في الإسلام ترتكز على قاعدتين هما : " العدالة والشورى، العدالة من جانب الحكام وأعوانهم في الحكم والطاعة من جانب المحكومين والشورى بين الحكام والمحكومين والإشراف على تنفيذ شريعة الله والعمل على نشر الدعوة الإسلامية والمحافظة على رسالتها وجوهرها " .(33)

فما أطلق عليه العقاد اسم " الديمقراطية في الإسلام " هو تسمية غير صحيحة لأن هناك تباين بين مفهوم الديمقراطية والشورى.

فالديمقراطية كلمة يونانية مركبة تركيباً مزجياً من لفظين هما "Domos " معناها شعب و" Kratos " ومعناها سلطة وبذلك يكون معنى الكلمة " سلطة الشعب".(34)

ويمكن تحديد سبعة فروق جوهرية بينهما هي التالية (35):

الأول: أن الشورى نظام رباني من صنع الله الخبير بعباده أما الديمقراطية فهي من صنع الإنسان فالحاكمية فيها للإنسان .

الثاني : أن الشورى جزئية في النظام الإسلامي العالمي النزعة الذي ينظر إلى العالم أنه وحدة متكاملة لقوله تعالى:

(وَمَا أَرسَلنَاكَ إِلاَ رَحمَة للعَالمِين) (سورة الأنبياء، الآية : 107) أما الديمقراطية فهي مقترنة بالوطنية والقومية والعنصرية .

الثالث : النظام الديمقراطي يقوم على مبدأ الأكثرية فالحزب الذي يحصل على أعلى نسبة من الناخبين هو الذي يحترم، والمرشح الذي يؤيده غالبية الناس هو الذي يصل إلى المجالس النيابية .

أما نظام الشورى لا يتبع الأكثرية لو كانت على ضلال فالشريعة هي معيار سواء تبعتها أكثرية أم أقلية . (36)

(وَإِن تُطِع أَكثَر مَن فِي الَأرض يَضِلُوك عَن سبيل اللّه) (سورة الأنعام، الآية: 16)

الرابع: وهو مترتب عما سبق فالديمقراطية جزء من نظام يؤمن بالمواطنة ويهتم بتربية المواطن الصالح الذي يتحول بعد مجاوزة حدوده إلى شخص أخر تتنازعه مشاعر الأنانية والقسوة كما في المستعمرات في آسيا وأفريقيا في الماضي .

أما الشورى فهي جزئية في نظام يؤمن بتربية الإنسان الصالح أيّاً كان وطنه ؛ لأنه عنوان الإسلام وهو قدوة الآخرين .

الخامس: أهداف الديمقراطية في النظم الغربية أهداف نفعية خاصة ومتغيرة لا تستند إلى قيم أخلاقية وإنسانية عامة وثابتة، أما الشورى فهي جزئية في نظام يقوم على أساس الغايات الخلقية للأعمال ولهذا فلابد أن تكون الوسائل لتحقيق هذه الغايات مشروعة وفق منهج اللّه .

السادس: الديمقراطية القائمة على النظم والتشريعات الوضعية تعتبر التشريع من حقها فهو إحدى سلطاتها الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وبهذا الشكل فإن التشريع الوضعي لا يعطي أية ضمانة لحرية الشعب إذا احتل مقعد السلطة حاكم يضع القوانين.

أما الشورى فهي جزئية في نظام حصن المجتمع ضد الطغيان حين جعل التشريع في جوهره مستقلاً عن الدولة، ففصل بين السلطة التشريعية (ممثلة في القرآن والسنة) وبين السلطة التنفيذية بما فيها السلطة القضائية . (37)

السابع: سلطة الدولة في الديمقراطية الغربية سلطة مطلقة، فالدولة هي صاحبة السيادة عن طريق البرلمانات والمجالس النيابية والقوانين التي تضعها وتلغيها، فقد تعلن هذه الدولة الحرب من أجل سيادة شعب على شعب أو للاستيلاء على طرق التجارة وأسواقها أما نظام الشورى لا يعطي الدولة سلطة مطلقة هكذا وإنما مقيدة بالقوانين الأخلاقية والإنسانية التي نصبت عليها الشريعة الإسلامية أو السلطة التشريعية. (38)

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث أود أن أنوه بأهم نتائجه:

1. تناول العقاد مفهوم الدولة الإسلامية ونشأتها مشيداً بدور أبى بكر الصديق. وهو يرى بأن إدارة الدولة الإسلامية في عهد الصديق لم تتغير عن عهد النبوة لأن جزيرة العرب عادت كما كانت عليه أيام النبوة أضف إليه انشغال الصديق بالفتوحات الإسلامية إلى آخر خلافته .
2. بالغ العقاد أشدّ المبالغة بشأن عمر بن الخطاب بأنه هو مؤسس الدولة الإسلامية لأن المؤسس الحقيقي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بداية من بيعة العقبة الثانية والهجرة ويمكن تسميتها بالدولة الناشئة أو حديثة الولادة ثم تعهدها عمر وأحسن الإدارة والتطوير والتنمية.

3. أطلق العقاد مفهوم " الديمقراطية الإسلامية " ويقصد به نظام الشورى في الإسلام وهو يرى بأنها ديمقراطية من نوع خاص بين النظري والعملي .

وقد أخفق العقاد في هذا الرأي إذ أن الديمقراطية غير نظام الشورى فهناك عدة فروق جوهرية بينهما ولكن رغم ذلك فإن ما أشاد به من أراء مع طريقة عرضها وتحليلها يُعتدّ بها وهي تنمّ عن عقلية جبارة وفكر يُحترم .

4. وإني أحب أن أطلق على العقاد مسمَّى " السياسي البارع " تحليلاته السياسية، وفلسفته الرائعة تتوافق والمنطق، فهو مثلاً يرى بأن العلاقات وقد يسميها أحياناً بالمعاملات الدولية للمسلمين كلها تقوم على مبدأ واحد أساسه الوفاء بالعهود،

وخلوص النية في التزامها، كما أنه كذب وبعنف شبهة انتشار الإسلام بحدّ السيف.

ويرى العقاد بأن علاقة الحرب بين المسلمين وجيرانهم أو معاهداتهم هي أرفع معاملة عُرفت في عصور الحضارة الإنسانية.

هوامش البحث:

1 - ويكبيديا الموسوعة الحرة، بتصرف

2 -محمد كامل ليلة، النظم السياسية، الدولة والحكومة، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، 1969م، ص25 . ❖ وهذا التعريف ل كاريه دي مالبير من كتاب النظرية العامة للدولة، ج1، سنة 1920 م، ص7 .

3 - المصدر نفسه، ص26 .

4 - المصدر نفسه،ص نفسها .

5 - المصدر نفسه، ص 39 .

6 - عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص110 وما بعدها بتصرف .

7 - المصدر نفسه، ص115 .

8 - المصدر نفسه، ص116 .

9 - عبقرية عمر،(ص 127) المكتبة التوفيقية، الحسين، القاهرة،

10 - السيرة النبوية، ابن هشام، ج1، تحقيق / مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، ص366 .

11 - زيد بن ثابت، صحابي شهد أحداً، ويقال إن أول مشاهدة الخندق، كتب الوحي للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو من تولى تقسيم غنائم تبوك، وهو من علماء الصحابة روى عنه جماعة منهم كأبي هريرة ز أبى سعيد وابن عمرو وأنس، جمع القرآن في عهد أبى بكر الصديق والراجح أنه توفى سنة خمس وأربعين هجرية . ❖ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، تحقيق / خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، الحسين – القاهرة، ص500

12 - عبقرية عمر، ص 127 .

13 - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري،ج3، دار التقوى – شبرا الخيمة – القاهرة – ط1، 2001م، باب جمع القرآن، ص644 .

14 - عبقرية عمر، ص 128 - 130 بتصرف وإيجاز .

15 - سيرة ابن هشام، ج2، ص160 .انظر كذلك . تاريخ الطبري، ج2، ص99 وما بعدها .

16 - سيرة ابن هشام، ج2، ص154، وللقارئ مراجعة كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج2، تحقيق / خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، الحسين، القاهرة، ص12 وما بعدها .

17 - انظر محمد سليم العوَّا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، المكتب المصري الحديث، ط السادسة، 1983 م، ص 52,53 .

18 - انظر المصدر نفسه ص148 - 154 بتصرف .

19 - أبو عبيدة بن الجراح هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، أنزل بأبيه ضربات متلاحقة في غزوة بدر حتى لفظ والده أنفاسه الأخيرة . أسلم بمكة قبل الهجرة، وهاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة بعد إسلام حمزة وعمر بن الخطاب . أرسله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع وفد اليمن ليفقههم في دينهم، وقال : " إنني سأبعث معكم بأمين صادق أبى عبيدة – أمين الأمة . توفى – رضي الله عنه – في طاعون عمواس في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ثماني عشرة ودفن هناك .❖ محمد علي قطب، موسوعة رجال ونساء حول الرسول، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2004 م، ص 285 وما بعدها .

20 - العقاد، عبقرية عمر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ص126 – 127 . انظر ترجمة زيد بن ثابت في الهامش رقم 13 .

21 - المصدر نفسه، ص نفسها .

22 - المصدر نفسه، ص128 – 130 بتصرف .

23 - تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك، ج 2، تحقيق / مصطفى السيد،

24 - انظر العقاد، المجموعة الكاملة، ما يقال عن الإسلام، ص129 – 131 .

25 - انظر المصدر نفسه، ص نفسها .

26 - المصدر نفسه، ص132 .

27 - العقاد، المجموعة الكاملة، السياسة في الإسلام، ص 551 - 552 .

28 - المصدر نفسه، ص559 .

29 - المصدر نفسه ص559 .

30 - المصدر نفسه ص559 .

31 - عبد القادر عودة، الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص 120 – 121

32 - أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي، ج4، دار المعرفة – بيروت – لبنان، ص 120 – 122 .

33 - محمد كامل ليلة، النظم السياسية، الدولة والحكومة، ص444 .

34 - المصدر نفسه، ص734 .

35 - علي أحمد مذكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1990م، ص212، 213 .

36 - المصدر نفسه، ص215 وما بعدها .

37 - المصدر نفسه، ص 218 .

38 - المصدر نفسه، ص نفسها، ويمكن مراجعة كتاب الشورى وأثرها في الديمقراطية، دراسة مقارنة، لعبد الحميد إسماعيل الأنصاري، دار الفكر العربي، القاهرة – مدينة نصر – 1996 م، ص 427 .